أعمال حسن باشا عاصم

كتبنا في الجزء الماضي شيئاً عن أخلاق حسن باشا عاصم ونكتب في هذا الجزء شيئاً عن أعماله وعمدتنا في هذا وذاك الاختبار، وغرضنا منه بيان طريق التأسي والاعتبار، وإنما قدمنا الكلام في الأخلاق لأنها هي مصادر الأعمال، فهي الأصل الأصيل في تفاضل الرجال، ولم نسلك فيما كتبنا ولا فيما نكتبه الآن مسلك الاستقصاء بل نكتفي بما قل ودل

تمهيد في تربيته وتعليمه

بالتربية والتعليم يتفاضل المتساوون والمتقاربون في الاستعداد وقد اتفق لحسن عاصم منهما ما أظهر استعداده العظيم . كان والده من حاشية محمد باشا عاصم أحد كبار المديرين في هذا القطر ولم يكن لهذا نسل . وولد حسن في حجره فسرّ به وتولى تربيته بل تبناه وأضاف اسمه الى اسمه فعلمه التعليم الابتدائي والوسطي والعالي فانتقل من المدارس الابتدائية الى مدرسة الادارة (الحقوق) فكان في طليعة النابغين ثم أرسل مع بعض النابغين الى فرنسا على نفقة الحكومة للترقي في علوم الحقوق والسياسة فتلقاهما بجده واجتهاده حتى كان من خير النابغين وحملة الشهادات العالية فيهما . وكيف لا وهو لم يكن يعرف اللهو والبطالة ولا ممن يحفل باللذات والشهوات البدنية وتلك هي قواطع طريق العلم على طلابه لا سيما في أوربا ولا سيما في فرنسا . وما أظن الا أن بيت محمد باشا عاصم كان نقياً من الاوث التي تتلطخ به كثير من البيوتات كالسكر وما يتصل به عادة وكأني بذلك الرجل وانا لم أعرفه ولم أعرف عنه شيئاً كان بصيرا بالمفاسد التي تدب الى الناشئين في السعة فحال بين ربيبه وبينها فلم تتدنس نفسه برذائل المترفين، ولا بدناءة المعوزين، فهذه التربية النقية هي التي ساعدته على كمال تحصيل العلوم حتى كان وهو ابن الخادم مشرّفاً للمخدوم بنسبته اليه ومحيياً لذكره ولولاه لما عرفه مثلي ولا دون اسمه في هذه المجلة الإصلاحية . وكم أفسدت باريس من أولاد الأمراء والوجهاء الذين هم أرفع من محمد عاصم باشا ذكرا في قومهم

عمله في القضاء والنيابة

لما عاد من أوربا جعلته الحكومة مساعد النيابة فوكيلا فرئيسا في الاسكندرية ثم في طنطا وكان قد مات محمد عاصم باشا فكان خير خليفة له في أهله حتى انه كان ينفق معظم مرتبه الشهري على قلته في المرتبات التي كان يقوم بها مربيه الذي مات ولا مال له . بل لم يتعجل في العودة من أوربا الى مصر لا لأجل هذا فقد كان يبغي الاستزادة من العلم الى ان يصير دكتورا في العلوم التي كان يشتغل بها بعد أن نال شهادتها العالية المعبر عنها عندهم بالليسانس ففاجأه نعي مربيه فاكتفى بما حصل ، ورجع عما كان أمل ، وقد كان في النيابة العامل المصلح للنظام وطالب الاجتماع إذ كان يتعقب الاشقياء المفسدين وطلبة الامن المتعدين حتى طهر منهم المديريات التي عظم بلاؤها بهم . وكان يزجي كل من تحت رياسته في الجد والاجتهاد فلا يكادون يجدون ساعة بطالة

ولما جعل السير سكوت مستشارا قضائيا لمصر وجه همته الى اصلاح المحاكم الاهلية وكانت مختلة معتلة فكان يطوف على رجال القضاء والنيابة يسألهم عن رأيهم في الاصلاح وعما يشكون منه فما كان يسمع من الاكثرين الا عبارات الثناء والاقرار بالرضى عن الحال الحاضرة . حتى ظفر بحسن عاصم فأخبره هذا بجميع العلل و بطرق علاجها فجاء به و بصديقه علي بك فخري الذي رأى فيه مثل نباهته واستعداده وجعلهما مفتشين للقضاء ثم عضوين للجنة المراقبة التي أنشئت في نظارة الحقانية فكانا هما الواضعين لنظام المحاكم الحاضر وطريقة المراقبة القضائية المتبعة بل كان حسن عاصم هو الذي اقترح بموافقة رفيقه اختيار القضاة من أهل الكفاءة بالاستقامة والنباهة واختبار البلاد كالمتخرجين في دار العلوم وغيرهم ممن عرف بالعلم والفضل وان لم يكن متخرجا في مدرسة الحقوق و بذلك تيسر للحكومة إصلاح المحاكم بقدر الامكان .

ومن خدمة حسن عاصم للقضاء وضع مشروع المحاكم الجزئية ثم السعي مع صديقه علي فخري في انفاذه عند سنوح الفرصة لهما بثقة السير سكوت المستشار المحب للاصلاح بهما . وله في ذلك أعمال أخرى ليس من غرضنا تقصيها . وكان السير سكوت

من الاعجاب بعلمه واستقامته وقدرته على العمل ما أحله عنده في أعلى منازل الثقة والكرامة . وأراد ترقيته فلم ترض الوكالة البريطانية بذلك بل حاولت ان تدليه لاتهامها إياه بمناصبتها فعرقلت عليه السياسة الاستعمارية عمله النافع في المحاكم وذلك شأنها مادخلت في عمل الا وأفسدته كما كان يقول الاستاذ الامام . وما كانت تهمة حسن عاصم بالسياسة محض اختلاق ولكن ربما كان يبالغ فيما ينقل للوكالة عنه أو كانت الوكالة تنظر الى الامور بعين الاحتياط فتراها أكبر مما كانت عليه

كانت في البلد حركة وطنية قبلتها بل روحها الامير الجديد عباس حلمي باشا تبعثها الآمال وتجدد بها الاقوال ، حتى تزجيها الى بعض الأعمال ، التي كان يظن انها وسائل لازالة الاحتلال ، والتمتع بكمال الاستقلال ، وكان أكثر أهل الفهم والرأي من رجال الحكومة وغيرهم مغرورين بتلك الحركة ولم يسلم من شيء من ذلك حسن عاصم على أناته وبصيرته وكان صديقه ورفيقه في العمل علي فخري بك أشد منه اعجابا بل تحمسا بها بل أقول انه لم يسلم من الغرور بتلك الحركة أحد من أهل الرأي والظهور في البلد الا مادون عدد أنامل اليد الواحدة .

قد يظن بعض الشبان اليوم ان في البلاد حركة وطنية قوية لم تكن من قبل وما ذلك الا لانهم لا يعرفون شيئا من الحركة التي كانت من نحو خمس عشرة سنة اذا كان الرجال يجرون عربة الامير بأيديهم واذ كان الأمير يعود من سياحته الصيفية فتكتظ الاسكندرية بمئات الألوف لتلقاه حتى قيل انه دخل الاسكندرية في يوم واحد ثمانون ألفا من أهل الأرياف . وما ذلك الا لأن السلطة الأجنبية ثقيلة على النفوس البشرية تنفر منها بالطبع فاذا آنست بصيصا من الأمل بالتخلص منها على يد من تثق بهم من أبناء جنسها السياسي أو الديني فانها لا تعدم ان تشرئب اليه وتعول عليه ، وقد كان الشعب يرى من الأمير الجديد منذ ولي ذلك البصيص بل كانت ترى من حاله ، وتسمع مما ينثر من درر أقواله ، ما يجعل ذلك البصيص نورا ساطعا يملأ الجوانح آمالا ، ويغر بالنفوس الى الجهاد الوطني خفافا وثقالا ، فلا عجب اذا كان مثل حسن عاصم وهو في شبابه ممن كان يظن أن في تلك الحركة بركة لا سيما وهو مطلع على ما كانت تدبره فرنسا وما تعد به مصر وتمنيها

غرضنا من هذا البيان ومن سائر ما نكتبه عن الرجل ان تكون السيرة بسيرة رجل نابغ منا مبنية على أصل ثابت ورواية صحيحة في زمن لا يكتب فيه عن رجال العصر الا أصحاب الصحف السياسية في الغالب وهم لا يبينون من الحقائق الا ما تسمح لهم به السياسة على الوجه الذي تحبه وترضاه

فليعلم الشبان المتحمسون في الوطنية الذين تهيجهم نغمات المتغنين بأشعارها ، والضاربين على أوتارها ، ان هذا النابغة الذي يفتخر الوطن به قد تحمس في شبابه بالسياسة أياما كانت دواعي التحمس فيها أوفر ، والآمال بالنجاح أقوى ، ثم استقر رأيه بعد الاختبار على ان العاملين للوطن والمخلصين في خدمة الأمة يجب عليهم أن يتنزهوا عن شوائب التحمسات السياسية والهيجانات الطبعية ، وان يلتزموا السكينة والروية ، ويجعلوا عمدتهم اتقان الأعمال ، دون الغرور بزخرف الاقوال ، والانخداع بالدعاوى العراض الطوال ، ولذلك كان يعمل ليله ونهاره من غير لغط ولا دعوى ، ولا تذمر ولا شكوى ، بل كان ذلك دأبه منذ كان

كان السير مكوت المستشار المصلح المخلص على ما هو مشهور بين جميع العارفين قد وعده بأن يجعله نائبا عموميا بعد ان جعله الأفوكاتو العمومي ولكن لورد كرومر أمره بعزله كما يقال فكان في أمره وبعد العناء والجهاد قدر على ان يستبدل بالعزل جعله قاضيا في محكمة الاستئناف الأهلية برتب أنقص من مرتبته قبله فلم يزده ذلك الا جدا في العمل ومضاء في الاصلاح . ومما يؤثر عنه انه كان يسمع خبر عزله فلا يحدث عنده فتورا ولا مللا ولا يثنيه عن الابتداء بعمل جديد أو وضع مشروع لعمل مستقبل وان كان يترقب تنفيذ هذا وإتمام ذلك على بقائه في عمله . وقد كان مما اقترحه في أثناء التحدث بعزله نقل طائفة من الكتاب بالنيابة في محكمة الاستئناف لعدم الحاجة اليهم الى المحاكم الابتدائية التي هي في أشد الحاجة اليهم فأخبره رئيس الكتاب بان أمر عزله قد تقرر بل كتب ولم يبق دون تنفيذه الا ختمه فقال رحمه الله ما معناه ان هذه فرصة تحرم اضاعتها واني أعمل الواجب مادمت متمكنا منه وان هذا التمكن يستمر الى أن ابلغ الأمر بالعزل رسميا .

عمله في المعية

عز على أصدقاء هذا العامل المصلح ان يكون ظنينا على عمله عند القوة الفعالة في البلاد، وان لا يوضع في الموضع الذي يستحقه من ناصية القضاء، ولا خلا منصب رياسة التشريفات عند الأمير بنقل عباني باشا منه الى نظارة الحربية بادر الاستاذ الامام فرغب الى الأمير ان يجعل القيد رئيسا للتشريفات فذكره الأمير رجلا آخر من المرشحين عنده لهذا المنصب فقال الاستاذ الامام رحمه الله — وكان الأمير أطال الله عمره يقدر رأيه حق قدره — كلا الرجلين كفؤ ويمتاز عاصم بمعارفه القضائية وأفندينا تعرض عليه القوانين واللوائح فيحسن ان يكون في معيته من يدرسها ويبدي رأيه فيها: ذكر لي ذلك الاستاذ في سياق عناية الامير به وكونه هو الذي اقترح جعله مستشارا في الاستئناف ثم جعله مفتيا وما كان فضل عاصم ليخفى على الامير لذلك فضله على غيره وولاه هذا المنصب

انا نرى من المتعلمين من يختار أو يختار أولياؤه له علم الحقوق ليكون قاضيا أو محاميا أو علم الهندسة ليكون مهندسا أو علم الطب ليكون طبيبا مثلا. ولكننا نرى النابغين فيها يوجهون جل عنايتهم اليه قليلين وأقل من هذا القليل من يبرع في العمل كما نبغ في العلم وأقل من هؤلاء من يعهد اليه عمل غير ما استعد له واشتغل فيه فيتقنه بعد اتقان غيره والبراعة فيه. أولئك الذين اعطوا من المواهب العقلية ما أعدهم لاتقان كل عمل يشتغلون به وقد كان حسن عاصم من هذا الفريق النادر فانه كان في أخلاقه وجل معارفه وسابق عمله أبعد الناس عن خدمة الامراء ولكنه على هذا عمل في خدمة الامير ما عجز عن مثله كل من كان في خدمته وخدمة أسلافه كما عجز عن الزيادة عليه من جاء بعده

كان رجال التشريفات من قبل رياسته لا عمل لهم في غالب أوقاتهم فخلق لهم من الأعمال ما استغرق عامة أوقاتهم في القصر حتى انه استخرج دفاتر التشريفات القديمة من عهد محمد علي وعرف ما في ذلك وحاضره ثم وضع للتشريفات نظاما ثابتا حدد فيه أوقات المقابلات الرسمية وغير الرسمية وكذلك

الدعوات وحفلة المرقص الخديوي فقد كان كل ذلك معروفاً بالفوضى والخلل .
ومن ذلك انه اشترط فيمن يقابل الأمير شروطاً في الزي للموظفين وغير الموظفين
قد تختلف باختلاف المقابلات واختلاف زي الأمير العسكري والملكي فيها ونفذ
ذلك كله على الوطنيين والأجانب على سواء . وما كان يسهل عليه ان يشذ
عن نظامه ذلك أحد

وأذكر من تنفيذه النظام على الاجانب من كبار الحتلين وغيرهم ان بعض
كبار الموظفين منهم جاء عابدين بلباس غير ما يجب في تلك المقابلة فنبهه الى ذلك
فعاد الى بيته وغير زيه

وأعظم من ذلك ان المرقص الخديوي كان يحضره من أوشاب الافرنج من
يعرف ومن لا يعرف . وسبب ذلك ان ديوان التشريفات كان يرسل الى كل
وكالة سياسية للدول عدة أوراق ليس عليها أسماء ليدعى بها وجهاء الأجانب
فكان يأخذها من هم أهل ومن ليسوا بأهل لحضور مجالس الأمراء والملوك
فكان من النظام الذي وضعه له حسن عاصم انه لا يحضر المرقص أحد الا من
دعاه ديوان التشريفات دعوة خاصة باسمه وانه لا يدعو من الأجانب الا من
كان معروفاً عند الأمير ولو بتقديمه اليه قبل المرقص بزمن قريب كما انه لا يدعو
من الوطنيين الا من كانت صفته كيت وكيت ككونه من أصحاب الرتبة الثانية
فما فوقها أو ما يقابل ذلك . فساء هذا النظام وكلاء الدول وقناصلها فعهدوا الى
لورد كرومر وهو أقدمهم أن يعترض على ذلك ويتلافاه فكلم حسن باشا فيه
فاحتج عليه هذا بتفضيل النظام على الفوضى وأطلعه على إعلان من شركة كوك
التي تتولى نقل السياح في مصر من مكان الى آخر وفيها ان سياحها يشاهدون كذا
وكذا من الآثار القديمة ويحضرون المرقص (البالو) الخديوي!. فقال له اللورد
اني أجل النظام ولا يليق بي ولا بدولتي ان نعترض عليه ونحن دعاته ولكنني أعلم ان
السراي لا يلزم فيها نظام بل المستثنى فيها من القاعدة أكثر من المستثنى منه
فنحن لا نرضى ان يكون النظام سارياً علينا وهو غير مطرد : فقال له الفقيد : انني
أضمن لجنابكم بأني أنفذ هذا النظام ما دمت هنا بلا شذوذ قط وعلي تبعة ذلك

الا أن يأمر رب المكان بشيء فلا يمكن لخادمه ان يعارضه فيه اذ يحتمل ان يقدم له شخص في غير السراي فيدعوه هو مثلا فهل يمكن ان يسئل عن ذلك؟ فاقتنع اللورد بذلك ولم يسعه الا الرضى. سمعت هذا من الفقيد نفسه

وقد مكث في منصب رئيس التشريفات بضع سنين ثم رقاه الأمير فجعله رئيس الديوان الخديوي فكانت خدمته أجل وأوسع إذ تعدت خدمة الأمير الخاصة الى خدمة الأوقاف العمومية. ولكن قلب الأمير تغير عليه ففصله بعد ثلاث سنين من منصبه بالاحالة على المعاش. فكبر ذلك على الناس وكثر حديثهم فيه وظهر أثر ذلك في الجرائد فكانت متفقة على الثناء على الفقيد فرأينا ان نجعل ذلك وسيلة للموعظة وسوق العبرة الى المستعدين الاقتداء بعظماء الرجال وطلاب الفضيلة والاستقلال فكتبنا يومئذ في المنار نبذة في ذلك (راجع ص ٧٥٨ م ٢)

وقد أشار المؤيد الى نحو ما قلناه يومئذ عن اللواء مع زيادة اذ قال عند بيان سبب عزل الفقيد من رياسة الديوان الخديوي في ترجمته له ما نصه:

« وقد أمضى الفقيد نحو سبع سنوات رئيسا للتشريفات الخديوية وثلاثا رئيسا للديوان الخديوي مثالا لأشرف موظف نزيه يخلص العمل والخدمة لمولاه ويؤدي الوظيفة المنوطة به أشرف أداء. ثم فصل بعد ذلك لأمر حسب نفسه فيه مؤديا واجبا كما ينبغي عليه وحسبه الجناب الخديوي متعنتا فيه. وزادت الريبة منه كلمة قالها اللورد كروم لاحد رؤساء الدواوين الخديوية ليبلغها للجناب العالي إذ قال اللورد « اني أهنئ الجناب الخديوي بوجود رجل مستقل قوي الارادة نزيه مثل حسن عاصم باشا في معيته » فخالج الجناب العالي ذلك الفكر الذي طاف قبلا على خاطر اللورد كروم لان هذا اللورد كان قد اعتقد ان شدة مراس الرجل في وظائفه القضائية أثر ظاهر من آثار الانحياز الى جانب المعية السنية وهي التهمة التي كانت تلقى على كرام الوطنيين للتنكيل بهم. ولذلك كان يحسب الفقيد من أشد اعداء الوكالة البريطانية. فلما جاء الوقت الذي تجلت فيه صفات الفقيد كما هي شهد تلك الشهادة العالية فأولت التأويل الطبيعي الذي كان نتيجة شدة التنافر بين قصر الدبارة وعابدين. ولذلك قال كثيرون

من الناس ان الورد أراد بحسن عاصم باشا سوءاً اذ شهد له هذه الشهادة وهو يعلم ماذا يكون وقعها من نفس مولاه في تلك الظروف » اه ثم قال المؤيد انه لم يطل الامر بعد ذلك حتى رضي عنه الامير

ونحن نعلم ان الورد قال كلمته في الفقيد عن إعجاب بمزاياه لا سيما بعد ما تبين له ان الحق عنده يعلو على كل شيء فلا يتحيز لغيره ولا يراعي فيه مولاه الامير فضلا عمن دونه . وان الذين قالوا انه أراد به سوءاً يسيئون الظن بالامير اذ يعتقدون ان الورد يقدر بكلمة واحدة ان يغيره على من يشاء وان ثبتت استقامته وكفاءته بحيث صار أشهر بهما من علم في رأسه نار ، وأظهر من الشمس في رابعة النهار ، والامير أذكى ذهنا وأوسع فهما مما يعتقدون

عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية

كان سبب تأسيس هذه الجمعية ان مشعوذا ممثلا أجنبياً جاء مصر من نحو ست عشرة سنة فربح منها مالاً كثيراً فاراد ان يجعل ليلة من لياليه لفقراء المسلمين وبلغ محافظ العاصمة ابراهيم باشا رشدي ذلك فاجتمع بعض أهل الغيرة والفضل وائتمروا بينهم في ذلك فاتفقوا على أن يزينوا حديقة الازبكية في تلك الليلة ويضيفوا الى ألعاب المشعوذ فيها ضروبا أخرى من اللهو المباح ويحفظوا المال ليجمعوا اليه غيره بالتبرع وغيره ويجعلوا ذلك أصلا لجمعية خيرية اسلامية وكاشفوا المحافظ بذلك فوافقهم عليه (وقيل ان زينة الحديقة كانت بعد) أولئك هم الاخلاء الصادقون في خلة بعضهم لبعض وفي حب الملهم وأمتهم منهم تحيذنا اليوم الذي نعتبر بسيرته وفقيدنا بالامس الاستاذ الامام رحمهما الله ومنهم سعد باشا زغلول وحشمت باشا ودرويش بك السيد احمد واخوانهم من الاحياء أطال الله أعمارهم وقد وضع هو قانون هذه الجمعية بمشاركتهم على أساس من الحكمة متين وكان أحكم أصوله وجوب إضافة نصف الدخل (الايراد) السنوي الى رأس المال لأجل الاستغلال والنصف الآخر يكون للتعليم واعانة الفقراء . والسبب في هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد في كل ما يقوم بالتعاون والاجتماع لاسيما اذا كان لمحض الخير وكان حسن عاصم أضعفهم ثقة حتى انه لم يكن يطلب من أحد معاونة ولا تبرعا الا نادرا وكان جل خدمته للجمعية في

الادارة الداخلية لمالها ومدارسها فكان ينظر بنفسه في الامور الكلية والجزئية حتى ما كان من شأن الكتبة . قال لي درويش بك أمين سر الجمعية انه ما كان يكلفني الا ضبط الحسابات ثم هو يقوم بسائر أعمالي. وأما الأستاذ الامام فكان لا ينظر في الامور الداخلية الا الى الكليات ونحو امتحان من يرشحون للتعليم في المدارس من الجزئيات وكذا أمور التنفيذ اذ كان رئيسا ولكنه كان يسعى في الخارج لتكثير مال الجمعية ويدعو الامراء والوجهاء حتى كبراء الاجانب الى التبرع لها أو الاشتراك فيها وهو الذي دفع الوشايات عنها وتولاه لما بقيت فكانا رحمها الله تعالى يكمل أحدهما ما يقصر فيه الآخر

وههنا نبين الحقيقة في مسألة ألم بها المؤيد فلم يحسن التعبير ولا وافق الصواب وكانت عبارته وهو يقصد بها مدح عاصم باشا ذمه بالاستبداد والشذوذ عن الآداب وهضما لحق رئيسه في الجمعية (الاستاذ الامام) وكذا لسائر اعضاء مجلس الإدارة اذ جعل وجودهم في المجلس كعدمهم من حيث انهم لم يكن لهم رأي ينفذ اذا خالف رأي عاصم باشا . بل أقول ان هذه العبارة تفيد سلب أقوى مزايا عاصم باشا عنه وهي مزية التزام النظام واتباع القانون كانه أمر إلهي. ولا شك ان صاحب المؤيد لا يقصد هذا ولكنها زلة قلم ولا عصمة الا لكتاب الله تعالى . أما عبارة المؤيد فهي :

ولم يكن يسمح لاحد أن يتعدى على النظام الذي عمله لها حتى استبد بجميع شؤونها وله في كل سنة وقفة أمام مجلس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية في شيء ينتهي الامر فيها الى العمل برأيه ومع ما كان من صداقته للمرحوم الشيخ محمد عبده وخصوصا حيث كان رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية قد أراد هذا أن يتداخل سنة ١٩٠٤ في أمر مدرسة الحلة الكبرى فرأى الفقيد أن تداخله هذا قد يشوش عليه عمله ويجعل لاساتذة مدارس الجمعية وأهالي تلامذتها مندوحة الى مخاطبة غيره في أمرها فكتب اليه تلغرافا وهو في المنصورة يقول له (لا تضع قدمك في الحلة الكبرى قبل أن تقابلني ولا أسمح لك بالتداخل في شؤون مدرستها) أو ما هو بمعناه ـ فجاء الاستاذ المرحوم الى القاهرة وجرى بينهما كلام ادى الى اختلافهما

في الرأي اختلافا شديدا فابى المقيد الا أن ينفذ رأيه أو يعتزل عمله كله في الجمعية وتم له ما أراد ولم يكن قصده الا أن يستقيم أمر المدارس على ما اعتقده أفيد لادارتها اهـ

أما حقيقة المسألة التي أشار اليها المؤيد فهي ان بعض المؤسسين لمدرسة الهلة بما تبرعوا به من المال لهم أولاد تجاوزوا السن التي يشترطها قانون مدارس الجمعية الخيرية في التلاميذ الذين يدخلونها . وهم ما بذلوا المال الا رغبة في تعليم أولادهم في بلدهم أولا و بالذات ثم المساعدة على تعليم الفقراء ثانيا و بالعرض فلما عهدوا بادارة المدرسة الى الجمعية كما هو القصد الأول من تأسيسها أراد حسن باشا ان لا يقبل أولئك الاولاد في المدرسة التي أسسها آباؤهم لأن اتباع النظام والتزام القوانين عنده من الامور الوجدانية التي لا يناقش فيها كما علم ذلك مما كتبناه في أخلاقه رحمه الله . وكان من رأي الاستاذ الامام رضي الله عنه أن يقبل أولئك الاولاد لأن رأيه في القوانين انها وسائل لدفع المضار وحفظ المصالح وإقامة العدل فمتى عرض من الحوادث ما يكون التزام القانون فيه مخلا بالمصلحة أو منافيا للعدل وجب أن يعمل في الحادثة التي هذا شأنها بما يقوم به العدل وتتحقق به المصلحة وهذا ما عناه حسن باشا عاصم نفسه بقوله في تأبينه انه كان في القضاء ما يسبر عنه الافرنج « بقاضي العدل والانصاف » وأقول — والشيء بالشيء يذكر — انه كان قد وشي به اذ كان قاضيا للمستشار القضائي بأنه يخالف القانون عمدا في بعض أحكامه فسأله المستشار عما قيل فأجابه: هل القانون وضع لأجل العدل أم العدل وضع لاجل القانون ؟ فقال بل القانون وضع لاجل العدل فبين له حينئذ القضايا التي لم يلتزم فيها نص القانون وانه لو التزمه لخرج عن العدل وترتب على ذلك من المفاسد كيت وكيت فشكر له المستشار ذلك

وكان على هذا الاختلاف بين الصديقين في هذا الاصل أو المبدأ — كما يقال — قد حدث ان الاستاذ امر بشيء مخالف للقانون على سبيل الاستثناء لاجل المصلحة العارضة فأنفذه حسن باشا ممتعضا ثم قابل الاستاذ وقال له انني انفذت أمرك الذي كتبت اليّ به لان أمر الرئيس متى صدر بالفعل وجب تنفيذه كيفما كان وإلا فلا معنى للنظام ولا للرئاسة ولكنني أرجوك أن ترجع عما رأيته من

مثل هذا الى ان نجتمع ونتذاكر فيه . فلما عرضت مسألة مدرسة المحلة خاف حسن باشا ان يعد رئيس الجمعية آباء أولئك الاولاد أو يكتب اليه امرا بقبولهم بطريق الاستثناء وذلك صعب عليه جدا ولا بد من تنفيذه متى امضاه الرئيس فكتب اليه يرجوه ان لا يبت شيئا في المسألة لا بالامر ولا بالوعد بل يرجيء ذلك الى الاجتماع وكان الامر كذلك فاجتمع مجلس الادارة وتناقشوا فيها وكان من رأي بعضهم تغيير ما فرضه قانون المدارس في السن فعلم حسن باشا بذلك فتشدد رحمه الله تعالى في المحافظة على القانون وعدم قبولهم وكتب الى الاستاذ الامام كتابا يستقبل به من ادارة المدارس ان تغيرت مادة تحديد السن في القانون — وبعد طول المناقشة تقرر باغلب الآراء تنفيذ رأي الرئيس وهو الاستاذ الامام بقبول أولئك الاولاد بطريق الاستثناء وارضاء الوكيل ومدير المدارس بوعد المجلس له بأن يكون هذا الاستثناء قاصرا على هؤلاء الاولاد لا يتعداهم الى غيرهم ولا يطلب ادخال غيرهم باستثناء آخر

في ذلك اليوم الذي قرر فيه مجلس ادارة الجمعية ماذكر ذهبت الى مكتب الجمعية لمقابلة الاستاذ الامام عند خروجه فرأيته خارجا مع بعض اعضاء المجلس وعلمت ما تقرر . ولما كتب المؤيد في ترجمة حسن باشا ما كتب كدت أشك فيما أعلم فراجعت درويش بك سيد احمد امين الجمعية (سكرتيرها) منذ وجدت فقلت له هل رأيت ما كتب المؤيد في ترجمة المرحوم حسن باشا قال نعم قلت له أن الذي علمته انا يومئذ مخالف لما في المؤيد — وذكرته له — فأينا الغالط ؟ فقال ان الغلط هو ماجاء في المؤيد وما تذكره انت هو الذي وقع . وعجبت مما قال المؤيد ان حسن باشا كتب الى المرحوم الشيخ «لا تضع رجلك في المحلة» الخ وحسن باشا أعلى أدبا من ان يكتب ذلك لمن دون الشيخ في مكانته الذاتية وفي صداقته له فلا أدري من أين جاء المؤيد بهذا

وجملة القول ان حسن باشا رحمه الله تعالى كان شديدا في المحافظة على النظام والقوانين كما كتبنا من قبل ولكن لم يكن مستبدا في الجمعية الخيرية ولا في غيرها وكيف يكون متبع النظام مستبدا ؟ وان أعضاء مجلس ادارة الجمعية كلهم من أهل

الاستدلال فما كانوا يبدون له رأيا وانما يقول كل واحد ما يظهر له أنه الصواب وكان كل شيء يختلفون فيه يقرر بأكثر الآراء ان لم يتفقوا كما هو نص القانون

أقول سمعت حسن باشا رحمه الله تعالى يقول بعد ما بلغ أمر الامير بعزله الحمد لله إنني الآن صرت قادرا على ان أعطي الجمعية الخيرية حقها من الخدمة فان السراي كانت آخذة معظم وقتي

وقد عين بعد ذلك وكيلا لدائرة القصر العالي وكانت مختلة مختلة مسلوبة منهوبة فادارها بدقة ونظام يعجز عنهما سواه ممن قضوا أعمارهم في ادارة الاعمال الزراعية والادارية والمالية . وعين مع ذلك مأمورا لتركة الامير محمد ابراهيم وهي تضاهي دائرة القصر العالي ثروة وأعمالا ومشاكل فضبطها أحسن ضبط . ولما تأسست الشركة الانكليزية المصرية للاتجار بالاراضي الزراعية كان ـ وهو من مؤسسيها ـ وكيل أعمالها وأدهش الافرنج بأعماله فيها على كثرة أعماله في القصر العالي وفي تركة الامير محمد ابراهيم وفي الجمعية الخيرية ومدارسها . ثم عين مع ذلك عضوا في اللجنة الادارية لمدرسة القضاء الشرعي فكان لها من خدمته العظيمة الحظ العظيم . وقد أشرنا في الكلام عن اخلاقه الى بعض عمله في جمعية احياء العلوم العربية التي كان وكيل رئيسها بل لم يكن لها بعد الاستاذ الامام رئيس سواه . كان يعمل هذه الاعمال كلها مع منتهى الدقة والاتقان ، فيالله ولهمم الرجال

وههنا أقول انني كنت أنتقد عليه كثرة العمل وأخاف ان ينهكه فيقتله ، وأنى لجسمه النحيف ان يحتمله ، وقد كان ما خفت ان يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، أصابه منذ أشهر ضعف في المعدة ترك لاجله أكل اللحوم كلها حاشا السمك وقد كان صام رمضان الماضي كله على الوجبة اذ لم يكن يتسحر فكلمته في ذلك غير مرة فقال لي انني جربت مرة فأكلت في السحور شيئا من الكنافة والفاكهة فثقل علي وأصابني منه غثيان في النهار . وكنت أراه أحيانا بعد العصر من رمضان وقد ضعفت قوته وخفت صوته حتى لو استفتاني في الفطر لأفتيته ، ولكن الله تعالى احب ان يكون ذلك خاتمة عمله فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأحسن عزاءنا عنه ، ونفعنا بسيرته الحميدة بمنه وكرمه

رزيئة مصر بحسن باشا عبد الرازق

حق لمصر اليوم ان تتمثل بقول الشاعر

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

يحق لمصر ذلك وقد رزئت بفقد الرجل العظيم حسن باشا عبد الرازق ولم يمض على فقدها لصديقه الكريم حسن باشا عاصم الا شهر ونصف وعلى فقدها لصديقهما الاستاذ الامام الا سنتان وأشهر

أولئك هم الرجال العاقلون العالمون العاملون المخلصون في مصالح وطن لا خلف لهم فيها تتعزى البلاد باداته ما كانوا يؤدون كما كانوا يؤدون ولا نكفر نعمة الله على البلاد بمن بقي من اصدقائهم العاملين الصادقين الذي نجيل ابصارنا فلا نرى للواحد منهم كفؤا ولا ندا يضارعه في عمله أو يغني غناءه فيه بل يجب ان نشكر اله تعالى هذه النعمة مع الصبر على ما أصابنا من المصيبة عسى أن يبارك لنا في أعمارهم ، وينفعنا بأعمالهم ، فان الصبر مجلبة الرحمة ، والشكر مدعاة المزيد ، ولكن « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » كما ورد في الحديث الشريف .

ليس المنار شاعراً يرثي ولا خطيبا يؤبن ، ولا مؤرخا يدون ، وانما هو واعظ ومذكر ، يستخرج العبر من حيث يجدها ويسوقها الى من غفل عنها أو جهلها ؛ ولا عبرة أنفع بعد هداية الله من التذكير بفضل العاملين الغابرين ، على الوجه الذي يزيد الناس معرفة بفضل العاملين الحاضرين ، وينهض بهمم المستعدين للتأسي بأولئك ونصر هؤلاء

انما كان حسن باشا عبد الرازق رجلا — والرجال قليل — باستعداده الفطري ونشأته الدينية ، فأما الاستعداد فهو الأصل في نبوغ كل رجل في الشرق حتى اليوم الا ما عساه يكون في اليابان من حسن التعليم والتربية النظامية التي تنهض بضعيف الاستعداد حتى يبذ من هو أعلى منه استعدادا اذا لم يصادف هذا من يربيه كتربيته

نشأ من فقدنا اليوم نشأة دينية حتى أن الحكام المستبدين عجزوا عن حمله على

السكر ونحوه وهو في ريعان شبابه ، وغضاضة إهابه ، وقد كان مرة مع اسماعيل باشا المفتش واعوانه فأرادوه على الشرب معهم فتمنع فألحوا فاستعصم فأعطوه كأسا من الجعة (البيره) باسم « افندينا اسماعيل باشا» وحلفوا عليه به ليشربن فاصر على التمنع فاستكبروا ذلك منه وطفقوا يرجعون اليه القول ويسر اليه بعضهم ما يراه وراء هذا التمنع من عاقبة إهانة الاسم الكريم (اسم الخديو) فسنحت له حيلة للتخلص فاخذ الكأس فأدناها من شفتيه فألقاها متقززا مكفهرا وهو يتفل ويقول : قطعت البيره وشاربوها !! كيف تشربون هذا الشيء المر البشع الطعم وكيف تطيقونه : فقابلوا ذلك بالضحك والسرور ولم يعودوا الى عرضه عليه

مثل هذه الواقعة يعدها بعض النابتة المتفرنجة خشونة وحشية (وقلة ذوق أيضا) ولكن من أوتي نصيبا من الحكمة يعدها آية النبوغ الكبرى لالأن شرب كأس الجعة يهدم الدين فحفظ الرجل دينه بالامتناع عنه بل بدلالتها على قوة الارادة وعدم المبالاة بلوم اللائمين في العمل بما يعتقد وان كانوا كبارا فهذه هي دعامة الفضائل وأصل الكمالات التي يكون بها الرجال رجالا ولولا هذه المزية لما كان حسن باشا عبد الرازق ذلك الرجل الذي أحسن القول فيه أصحاب الجرائد التي تناهض حزبه السياسي الوطني وعدوه من أفراد الامة العاملين الذي يقل نظيرهم ، وما يقولونه هم وغيرهم من العارفين بأقدار الرجال بألسنتهم أبلغ مما كتب وأكبر

بموت هذا الرجل تكررت العبر التي ترشد الأمة والنابتة الجديدة منها خاصة الى ان الشرف الحقيقي والمجد الصحيح لا يكونان للانسان الا بأخلاقه وصفاته النفسية ، لا بماله ونشبه ، ولا بعشيرته ونسبه ، ولا بأوسمته ورتبه ، فقد مات في هذه السنين الثلاث الأخيرة غير واحد من أكابر الأمراء والعلماء والاغنياء ولم تكتب الجرائد في أحد منهم ولا قال الناس فيهم مثل ما كتب وقيل في تأبين الاستاذ الامام ثم صديقه حسن باشا عاصم ثم صديقهما حسن باشا عبد الرازق على أنه كان لكل واحد من هؤلاء حالة سياسية تقضي باعتراض بعض الجرائد وعدم إرخائها العنان للقلم في تأبينهم مرضاة أو مراعاة لمن هم في جانب عنهم . فوصف كل واحد منهم بما وصفته تلك الجرائد به لا يمكن ان يعد من قبيل المبالغة بل كانا نعلم ان ما علم من فضلهم أكثر مما قيل ومما كتب

خدم حسن باشا عبد الرازق أمته في حسن سيرته في قومه وفي مجلس الشورى وفي تربية أولاده النجباء وسنبين ذلك في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

أقوال

(الجرائد اليومية في الاحتفال بالمنار)

علمنا ان بعض قراء المجلة في غير هذا القطر يحبون أن ننشر في المنار أقوال الجرائد المصرية في الاحتفال بالمنار فرأينا ان نوافي المحب ولو ببعض ما يحب. وقد كتبت الجرائد الشهيرة شيئا في ذلك قبل الاحتفال و بعده ولكننا لم نحفظه بل لم نطلع على كل ما كتب. فما كتب قبل الاحتفال ما جاء في العدد ٢٢١ من الجريدة الصادر في ٢١ شوال

عيد المنار

تهنئ « الجريدة » هذه المجلة العلمية التي كم لها من موقف مشهور في الدفاع عن الحقائق العلمية والمذاهب المتينة في أبواب الشرع الشريف . وكم لها من التنبيه الرشيد على وجوب التمسك بالآداب العالية ونبذ التقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان

تهنئ العلم وفن الكتابة في شخص مجلة المنار التي فتح الله عليها بالثبات النادر لامثالها في الشرق فانها ستتم بعد الغد السنة العاشرة من عمرها . وتدعو لها بطول البقاء قائمة على خدمتها الارشادية حاملة على الدخائل التي ظن القوم انها من الدين وليست منه في شيء . ولا شك في ان من يقف مثل هذا الموقف غير المألوف عند العوام كما وقف السيد محمد رشيد رضا نفسه على خدمة الحق من غير مبالاة بمصادف مصاعب — لولا اثبات — تذهب بعزيمة القائم بها . فمن يعلم مقدار